المرء غير محبوب من ان يهمل ، وهو خيار يائس · ولا يحب للكائنات البشرية ان تواجه بمصير كهذا ·

ويلوم توينبي العالم الغربي لانه تجاهل كل المآسي التي لحقت بالشعب الفلسطيني ، في وقت لم يكن لديهم ادنى سلطة ونفوذ ، كما ابدى عدم مبالاته بقضية العرب الفلسطينيين وما ارتكب في حقهم من اخطاء ، بل وطلب منهم دفع حساب الاخطاء التي اوقعها الغربيون ـ وليس العرب ـ باليهود · ولا يقع دم ضحايا العمليات الفدائية على رؤوس المقاتلين الفدائيين وحدهم بل على رأس العالم نفسه ، ويضرب توينبي مثلا على ذلك : « لو كنت انا او انت على وشك السفر من مطار ما واعترض سبيلنا مقاتل فدائي بمسدس او بندقية او قنبلة يدوية ، فهل نحن ضحايا بريئة تماما ؟ لنفترض ان الضحية ليست بريطانية (بمعنى انها مسؤولة بصورة محددة عن تصريح بلفور) وليس امريكيا (اي ليس مسؤولا بصورة محددة عن دعم اسرائيل في الاوساط الدولية) ، وليس صهيونيا او اسرائيليا ، ولنفترض ان الضحية من بيرو وليس يهوديا ، باعتقادي ان نقطة واحدة من دم الضحية تقع على رأس الضحية نفسها ، نتيجة لعدم مبالاة هذه الضحية المنكوبة الحظ لشكاوي العرب الفلسطينيين الدامية ، انها نقطة واحدة في محيط اللامبالاة العالمية التي كانت مبعث اذى وضرر للفلسطينيين منذ ما يقرب من نصف قرن » ·

ونظرية تبرير العمل الفدائي التي يطرحها توينبي تفترض الفرق بين صورتين: فالفدائي قاتل في نظر الاسرائيليين ولكنه بطل بنظر العرب ، وبنظر كل الفئات المعادية للاستعمار ، والمثل الفلسطيني هو احدث الامثلة منهذا النوع في التاريخ · ففي فلسطين العصر الكلاسيكي كان الثوار اليهود ضد الحكومة الرومانية في نظر اقرانهم اليهود عاملين من اجل قضية الحرية ، وفي نظر العالم الروماني (غير اليهودي) قاطعي طريق · وكذلك كان رجال حركة المقاومة في البلاد التي اجتاحها النازيون ، فهم ابطال في نظر بريطانية والولايات المتحدة « فالنصر العسكري يفترض دوما انه قد منح صاحبه حقا معنويا لا يقاوم ، والمهزوم عسكريا لا يعترف بهذا الحق ، ويلجأ دوما الى اية وسيلة ممكنة لازاحة نير الفاتح » ·

ويتساءل توينبي : هل ان حركة المقاومة الفلسطينية دون طائل ؟ او محكوم عليها بالاخفاق ؟ وما هو الدرس الذي نستمده من حركة المقاومة الفلسطينية الحالية والذي يمكن ان نستقيه من شواهد تاريخية سابقة ؟

يستقي توينبي الدرس من قصة شمشون البطولية حين وقع ضحية للظلم ولم يكن لديه شيء ليفقده سوى حياته ، فاوقع الموت بنفسه وبالفلسطينيين جميعا ، والفلسطيني بعد نصف قرن من اللامبالاة الجماعية لما ارتكب في حقه من الاخطاء وهو يواجه جدار الانسانية الحجري ، ولديه ثأر واضح ومفهوم